

الفصل الثاني عشر

جهاد

غادرت "جهاد" المنزل، وقهر الدنيا كلها يجتمع في صدرها، واتجهت إلى مشفى "الجلاء التخصصي" الذي يقطنُ به "طارق"، وتوقفت أمام زجاج الغرفة الخاصة به.. وظلت تنظر إلى جسده الممدد على الفراش في ضعفٍ ووهنٍ.. حدقت بملامح وجهه المستكين فتساقطت العبرات على وجنتيها.. ظلت تراقبُ الأجهزة الموجودة بالغرفة، ثم أتت إحدى الممرضات وتساءلت:

-هل تعرفه يا سيدي؟

وبسرعةٍ مسحت "جهاد" دموعها، ثم هتفت:

-تقريباً.

فقالت الممرضة:

-لفت نظري الزبي الذي ترتديه.. إنه يدل على أنك ضابطٌ بإحدى فرق المقاومة الفلسطينية.. لذلك جئتُ للحديث معك في أمر المقاومة والجهاد.

ورفعت "جهاد" كتفيها في عدم فهمٍ، وأتبعَت الممرضة:

-هذا المريض استفاق من غيبوبته مرةً واحدةً، ونطق خلال إفاقته كلمات

متشابهة، لم نفهم منها شيئاً سوى كلمة "جهاد" أو "الجهاد".. ولم تنجح "جهاد"

في السيطرة على دموعها وتساءلت:

-هل معنى هذا أنه من الممكن أن يفيق من غيبوبته، وأن تعود إليه ذاكرته قريباً؟

-ها هو الطبيب المختص يا سيدي، يمكنك أن تستفسر عن حالته.

وطرقت " جهاد " باب الغرفة الذي أشارت إليه الممرضة، ورحب بها الطبيب، ودار الحديث بطيئاً مملأً عما يدور في المنطقة من حربٍ وإرهابٍ، وتحدث الطبيب عن أداء المتطوعين في الجيش مراراً وتكراراً، وأخيراً، انتهزت " جهاد " فرصة ابتلاعه لشربة ماء؛ لتبدأ هي بالحديث عن حالة المدعو " طارق محمود دراز " .. وزوى الطبيب ما بين حاجبيه متسائلاً:

-صديقك.. أليس كذلك؟

-شيءٌ من هذا القبيل.

-إن حالته جدُّ خطيرة، فلقد كان تهدم المبنى فوق رأسه كفيلاً بأن يكون الآن في عداد الشهداء.. لكن الله قدر له الحياة، لكن العجيب رغم أن عقله بالكامل قد سقط في فوهة الغيبوبة إلا إنه هناك حدثاً لا زال يتربع فوق عرش ذاكرته غير مبالٍ بطبيعة مرضه، وهذا في حد ذاته شيءٌ استثنائيٌّ لم نره في كل الحالات التي مرت علينا.. إذا دخل الجسم كله في غيبوبة فقد العقل الإدراك بأكمله وطارق فقد وعيه بالكامل إلا شيئاً ما، ونحن لم نفهم كلماته المتشتتة، وحروفه المتقطعة التي نطق بها أثناء غيبوبته، ولم ندرك منها سوى كلمة " جهاد " .

وعندما نطق هذه الكلمة، ازدادت ضربات القلب، وارتفع ضغط الدم، وزاد أزيز الأجهزة، وهذا إن دل على شيءٍ فإنه يدل على أن هناك في الأمر خطباً ما.
تساءلت " جهاد ":

-هل من الممكن أن يعود إلى الإدراك مرةً ثانية؟

-الطب مهما بلغ من تطور، لا يستطيع أن يحدد قدرة المريض عل العودة إلى الإدراك في مثل هذه الحالات، ولذلك وضعناه تحت المراقبة الشديدة حتى نستطيع أن نميز ما سينطق به ثانيةً.

-وما الفائدة من ذلك؟

-هو ليس فاقداً للذاكرة، لكن عقله متوقفٌ ما عدا جزء صغير، هذا الجزء تكلم عنه أثناء غيبوبته وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على قوة وسيطرة هذا الجزء على بقايا عقله، ولذلك نحن أبلغنا والده أننا بحاجةٍ لمعرفة إذا كان لطارق تاريخٌ في الجهاد ضد اليهود أو أن اسم "جهاد" هذا يخص أحد معارفه.

-لم؟

-لأننا وإن نجحنا في الوصول لصاحب الاسم سندخله إلى "طارق" مباشرة؛ ليتحدث معه ويكلمه، وسينجح هذا الجزء الصغير من عقله في تمييز صاحب الصوت، وتمييز كلماته، وحينها قد ينجح العقل بأكمله في مغادرة الغيبوبة، والعودة إلى الواقع.. وللأسف هذا احتمالٌ ضعيفٌ، ولكنه آخر ما تبقى لنا من محاولاتٍ؛ لإنعاش عقله الذي يغرق في سباتٍ تام.

-وماذا كان رد العم "محمود"؟

-قال إنه لا يعرف أحداً بهذا الاسم!.. لذا نحن بحاجةٍ لمعرفة أصدقاء "طارق" واحداً واحداً حتى نستعينَ بهم في معرفة هذا الشخص الذي لم يبالِ ذهنٌ "طارق" باننيار مبنى كاملٍ عليه كمبالاته بصاحب هذا الاسم.

ونظرت "جهاد" إلى الأرض، ولم تدرِ ماذا تفعل؟.. هل من الواجب عليها أن تقوم على الفور لزيارة "طارق" وفعل ما يطلبه الطبيب منها ولئن نجحت في ذلك فستكون قد ردت ولو شيئاً بسيطاً من جميل هذه الأسرة عليها.. وإن لم تنجح هذه الطريقة فهي قد فعلت كل ما يمكنها فعله تجاه "طارق" حتى يفيق من غيبوبته، لكن ماذا إن استفاق "طارق"، وأخبر الجميع بحقيقتها وبأصلها اليهودي.. وضعها الآن لم يعد كالسابق إنها من أكفأ الضباط الموجودين على الساحة، ولو علم أحد بإضيها اليهودي فلن يتورعوا عن إعدامها في إحدى الميادين العامة.. خيرٌ لها أن تعود إلى المعسكر، وليفعل الله ما يريد.

وقفت جهاد، واعتذرت من الطبيب، وأخبرته أنها ستعود للاطمئنان على "طارق" ولن تدخر مجهوداً أو تعباً في البحث عن صاحب الاسم الذي تلفظ به "طارق".. وتساءلت:

-إذا لم نعثر على "جهاد"، ماذا سيحدث؟

ورد الطبيب بأسى:

-سنودعه قريباً.. إن جسده يموت قطعة قطعة، وأعضاؤه تتوقفُ عضواً عضواً،

إنه أقرب إلى الموت من الحياة.. وارتجف جسدها وغادرت على الفور.

وسمع "ياسر" لجنديه بالرحيل، والعودة إلى المعسكر مرة أخرى، وعاد إلى الردهة عبر الباب الخلفي مكماً الحوار.. وطرق الباب، وذهب العم "محمود" كي يفتحه، وتناهى لمسامع "ياسر" صوت كلامٍ متبادلٍ وترحيبٍ حارٍ، وسمع وقع خطواتٍ تقترب، وعرف أن بعض الزوار قد حضروا، وعليه أن يكتفي بما حدث في هذا اللقاء حتى لا يوقع الرجل في مزيد من الحرج.

ووقف كي يعتذر من العم "محمود"؛ لينهي اللقاء ولكنه تفاجأ بأن الزائر لم يكن سوى السيد "حسام" أهم إعلامي موجودٍ على الساحة الآن، والسيدة "سلمى الحسيني" وتبادل عناقاً حاراً مع "حسام" .. وبعض عبارات التحية مع "سلمى" .. ووقف "حسام" بالمنتصف موجهاً الكلام إلى "سلمى" قائلاً:

-لعلك لا تعرفين السيد "ياسر الصاوي"، إنه قائد إحدى المعسكرات التدريبية،

وقبل ذلك هو أخي الوحيد!

وتلعثمت "سلمى" واستقرت الدماء بوجهها، وجلس الثلاثة من جديد، وبدأ الحديث المعروف، والذي لا يخلو من عبارات الترحيب والسؤال عن الحال.. وجلست "سلمى" بجاب الأم، والتي بكت بمجرد رؤيتها وربتت على كتفها قائلة:

-إن "جهاد" طيبة، وترعرعت بمنزل أناسه طيبون، وبالتأكيد هناك حائلٌ يحول بينها وبين العودة.. إنها لا تعرف لنفسها أهلاً غيركم يا خالتي، ولن تصبر على فراقكم.

قالت الأم:

-إنني أشعر أني رأيت جهاد بمجرد رؤيتك يا ابنتي.

ابتسمت "سلمى" في مرارة.. وتكلم "حسام" قائلاً:

-إني لم أقدر على العبور من هذا الشارع دون أن نزوركم؛ للاطمئنان عليكم.

وقال العم "محمود" وابتسامة مريرة على شفتيه، وكأنه لا يصدق ما ينطق به:

-ما زالت الدنيا بخير!

وربت "ياسر" على كتفه مجدداً قائلاً:

-كلنا بخير.. طارق بخير.. وخالد بخير.

وأردفت "سلمى":

-وجهاد كذلك.

وقال "حسام" موجهاً الحديث لياسر:

-هل تصدق أنني كنتُ ذاهباً إلى المعسكر الآن؟

ورد "ياسر" في دهش:

-حقاً!!!

وقالت "سلمى":

-بالفعل لم يخطر على عقلي أبداً أن التصوير سيكون هناك.

وقال "حسام":

-لابد أن يكون لنا لقاءً مع الجنود؛ ليحدثونا عن قوتهم وشجاعتهم.. عن

انتظارهم للموت في كل دقيقة.. عن تحمل غربتهم عن أهلهم تاركين خلفهم أمهات

ثكالى وزوجات وأولاد.. لابد أن نعرف كيف يأكلون وينامون ويشربون.. وكيف

يخوضون الحرب وكأنهم يندفعون إلى نزهة لابد من تكرارها كل صباح؟

وهزت "سلمى" رأسها في إعجابٍ، ورفعت الأم كفها إلى السماء داعيةً أن ينصر الله الوطن، وأن يخلصه من هؤلاء الأنجاس.. أولئك الذين رملوا النساء، ويطموا الأبناء، وهدموا المساكن، ودنّسوا المساجد، وشرّدوا شعباً بأكمله.

وترجل الجميع، وأوصلهم العم "محمود" وزوجته إلى الباب.. واحتضنت "سلمى" وأخبرتها أنها ستنتظر زيارتها قريباً.. واستقلوا السيارة، واتجهت العربتان إلى المعسكر.

وأخيراً، توقفت السيارتان أمام أحد الأبنية العريضة الموجودة بالصحراء، وتقدم أحد جنود حراسة المدخل الخارجي إلى السيارة حتى يفتح الباب لياسر، والذي هتف به قائلاً:

-أبلغ الضابط "جهاد" أن يأتيني في مكنتي على الفور فلديّ زوارٌ أعزاء.
ووقفت "سلمى" تنظر إلى المبنى الكبير الرابض في منتصف الصحراء، وتحدث ياسر قائلاً:

-معذرة المكان لا يليق بكما.. لكننا في حالة حربٍ كما تعلمون.

هزت "سلمى" رأسها قائلةً:

-على العكس تماماً، لم أتوقع أنه سيكون بهذا الحجم، وبهذا التنظيم.
-أنتِ لم تري شيئاً بعد، إنه مقسّم إلى عدة وحدات ومراكز.. الأطباء في ناحية، والمتدربون الجدد في ناحية، والضباط ومهندسي الصيانة في ناحيةٍ أخرى.. إننا نحاول أن نفعل شيئاً قدر استطاعتنا حتى لا تدعو علينا الأجيال القادمة وحتى لا يقال:

- "أضاع القدماء القدس" .. لن يرحمنا التاريخ سيذكر أننا أضعنا القدس بعدما أعادها لنا "صلاح الدين" و "قطز"، ومن قبل "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه .. إن ضاعت في عهدنا فنحن أسوأ رجالٍ أتت بهم البشرية.. واتجه إلى الداخل يتبعه حسام وسلمى.

خرجت "جهاد" من حجرة الطيب، ونظرت إلى الطفلة الواقفة أمام حجرة "طارق" نظرةً فاحصةً، واقتربت منها؛ لعلها تسمع ما تهمس به، وسمعتها تتحدث بصوتٍ يملؤه الأنين:

- اصمد يا أبي.. تحدد المرض من أجلي، إذا أصابك مكروهٌ فمن سيبي لنا الملجأ من جديد؟.. لقد هدمه اليهود بعدما قتلوا كل من فيه.. من سيذهب بنا إلى المنتزهات؟ ومن سيخبرنا أننا الجيل الذي سيحرر هذا الوطن؟.. وبكت الطفلة مرردة:
- من سيكون أباً للأيتام من بعدك؟.. من فضلك، أكمل المشوار حتى نهايته.. مسحت دموعها بطرف ثيابها وأكملت:

- كلما أتيتُ إلى هنا، عدتُ إلى الشارع بيتي أكبر، وبفقدٍ أصعب.. لقد مات الجميع في القصف و بقيتُ أنا وحيدة.. لقد رحلت "فاطمة وآيات وبسمة" لقد رحل "إياد وعاصم وعمر" وجلستُ أبكيهم وحدي حتى أتت ما عدت هنا.. لا أعلم لم تخلتيم عني وتركتموني بمفردي؟

وفتحت ورقة كانت تطبق عليها يديها الصغيرتين، ونظرت إلى الراقد خلف الزجاج قائلةً:

- "لقد كتبتُ لك كل شيءٍ لكي تقرأه عندما تستفيق.. لقد كتبتُ لك كل ما حدث منذ أن غبتَ عني حتى هذا الجرح الذي أصاب قدمي وأنا أبحث عن "جهاد".. لقد أخبرني الطبيب أنك بحاجةٍ إليها.. وقابلتُ الكثيرين ممن يحملون هذا الاسم، لكنهم لا يعرفونك.. عجباً كيف لا يعلمون من هو بابا طارق؟! لكنني سأبحث مرة ثانية حتى أجد صاحب هذا الاسم، فأنا بحاجةٍ إليك، وبحاجةٍ للحديث معك، وبحاجةٍ لاحتضانك، لكن يحول بيننا هذا الزجاج، وهذه الأسلاك التي تلامس جسدك وتصلك بالحياة.. هل تصدق أنني أشعر بأنك تسمعني وتحسُّ بي؟ لقد كتبتُ لك كيف مات إباد وآيات وعاصم؟ لقد قصفتهم الطائرات وهم يلعبون الكرة، وفي اليوم التالي خرجتُ للبحث عن "جهاد" وعندما عدتُ وجدت الملقأ قد هُدم، ومات كل من كان به.. حفرتُ الأنقاض بيدي علني أستطيع أن أنقذ أحداً مع فرق الإنقاذ، ولم أنجح سوى في إنقاذ دميتي التي أهديتني إياها يوم أن ذهبت بنا إلى المنتزهات.. وحكيْتُ لك أيضاً قصة والدتي التي قدمها اليهود طعاماً لكلاهما في الشارع أمام الجميع، ولم يجرأ أحد على إنقاذها.. ندمتُ لأنك طلبتَ مني؛ أن أحكي لك كيف ماتت أمي، لكنني كنتُ أرفض في كل مرة.. عد مرة ثانية، وأعدك أنني سأحكي لك كل ما تريد.. سأحكي لك عن حجاب جدتي الأبيض الذي علقته على بيتنا يوماً ما حتى يرى الصهاينة الراية البيضاء على منزلنا فيريحونا من القصف لكن في الأخير قصف المنزل، ورحل أبي وجدتي وأختي الوحيدة.. عدُّ وسأحكي لك كل ما طلبتَ مني حكايته لك.. ها أنا أطلبُ منك أن تسمعني لكنك ترفض.. هذا خطابي التاسع لك سأضعه في يد المرضة، وسأطلبُ منها أن تضعه تحت وسادتك علَّك تقرأه يوماً ما".

سأرحل أنا الآن وسأعود إلى الشارع بحثاً عن "جهاد" ولكنني سأرحل للمرة التاسعة، وأنا أحمل خبيثتي وخذلاي وأحلامي المنكسرة، فهلاً رفقت بي وعدت للحياة مرة أخرى؛ لتصلح أحلامي المعطوبة؛ ولتشرق شمسي الغائبة منذ مرضك.

ذهبت الصغيرة إلى حجرة المرضات.. قبلتها إحداهن، ثم وضعت الطفلة في يدها ورقة ماء، وانصرفت مسرعةً تتبعها "جهاد" ورأتها تقفُ أمام المشفى تحملُ لوحةً كبيرة بين يديها المرفوعتين كُتِبَ عليها بخطٍ صغيرٍ أخرج

"هل اسمك "جهاد"؟.. أريد الحديث معك لدقائق"

نظرت "جهاد" إليها طويلاً من خلف دموعها.. خطت بضع خطواتٍ قصيرة، وأشارت إلى أول عربيةٍ تاكسي مرت بهم.. أملت السائق طريق المعسكر، وجلست في المقعد الخلفي تجاهد حبل أفكارها الذي يلتفُّ حول عنقها خانقاً إياها.

وصلت السيارة إلى المعسكر، وترجلت منها وسارت باتجاه الباب الخارجي.. أوقفها أحد الجنود وأخبرها أن القائد ينتظر وصولها منذ نصف ساعة، فلديه ضيوفٌ على قدرٍ من الأهمية.. واتجهت "جهاد" إلى الداخل بخطىٍ واسعةٍ، وأتاه صوت "ياسر" من بعيد هاتفاً بحنق:

-أين الضابط "جهاد"؟ من المفترض أنه هنا منذ ساعةٍ ونصف.

وانعظفت "جهاد" ناحية مكتبه، وتوقفت على بُعد أمتارٍ منه عندما لمحت الموجودين بالداخل من النافذة، وعادت قليلاً بظهرها إلى الوراء فاصطدمت بعبء الرحمن والذي هتف بتعجب:

-ما الذي تفعله يا "جهاد"؟ ولماذا تمشي بظهرك هكذا؟

وحاولت "جهاد" أن تعتذر لكن مفاجأة الموجودين بالملعب قد ألجمت لسانها،
 واتجهت مسرعة نحو غرفتها وهتفت بها "عبدالرحمن" قائلاً:
 - "جهاد"، انتظر.. كنتُ أودُّ الحديث معك في شيء هام.
 وقالت "جهاد" دون أن تنظر إليه:
 - نتحدثُ فيه غداً.
 وخرج "ياسر" على صوتِ الجلبة وسأل "عبدالرحمن":
 - ما كل هذه الضوضاء؟ ومع مَنْ هذا الصباح؟
 - الضابط "جهاد".
 - أحضره إليّ فوراً.
 وجاءت "جهاد" ونظرت إلى الغرفة نظرة خائفة قبل أن تسأل:
 - ماذا هناك سيد "ياسر"؟
 - بعض الصحفيين هنا سيساعدوننا في أشياء كثيرة.. سنقوم بتدشين حملة صحفية
 مكبرة ضد إسرائيل، وسنحاول من خلالها لفت أنظار الشباب إلى معسكرات
 التدريب.. وقبل أن يكمل هتفت جهاد:
 - لكن حالتني ليست على ما يرام.. ولا أستطيع الحديث في شيء اليوم.
 نظر إليها "ياسر" في شك، ورفع أحد حاجبيه ثم هتف قائلاً:
 - أين كنت طوال هذا الوقت؟!

تلعثمت "جهاد" ولم تدرِ بماذا تجيب؟ وكان صدرها يعلو ويهبط بشكلٍ ملحوظٍ فتوقفت عن الحديث.. وصمت "ياسر" وشعر "عبدالرحمن" أن هناك خطباً ما.. وحاول أن يضيفي المزاح على هذا الحوار الثقيل فقال مازحاً:

- لعل الضابط "جهاد" متزوجٌ ونحن لا ندري.. لعله افتقد زوجته فذهب؛ ليسري عن نفسه.

وقال "ياسر" باقتضابٍ موجهاً الكلام إلى "جهاد":

- اذهب إلى غرفة التحقيق.. بمجرد أن أنتهي من مقابلة الصحفيين سيتم التحقيق معك، وعاد مسرعاً إلى مكتبه.. وانجهدت "جهاد" إلى غرفتها وتبعها "عبدالرحمن" قائلاً:

- "جهاد"، أعلم أن الوقت ليس ملائماً لكني أريد الحديث معك.. هناك شيءٌ هامٌ للغاية.

- سأبدل ملابسي، وآتي إلى غرفة التحقيق حتى لا أخالف الأوامر.. انتظرنِي هناك، لكني لا أحتمل الانتظار ولو لخمس دقائق.

التفتت إليه في دهشةٍ، وقبل أن تنطق، وجدت ملاحه مشدودة، وعينه تملؤها الدموع، وينظر إليها نظرة متوسلة.. سارت باتجاهه، واتجهت نحو غرفة التحقيق.

ألقي "عبدالرحمن" التحية على الجندي القابع خلف المكتب، وجلس في مواجهتها خلف الطاولة الأخرى، ولم تنفرج شفتاه عن شيءٍ سوى عن ضحكةٍ عصبيةٍ قصيرةٍ أتبعها بقوله:

- آسف على ما سببته لك من متاعب.. أعلم أن ظروفك الآن لا تحتمل.



قاطعته جهاد قائلةً:

-ماذا هناك؟

-أشعر وكأن هناك مصيبة على وشك الحدوث.

تنهدت جهاد بعنفٍ، وهتفت:

-هل كل هذه البلبلة؛ لتحديثي عن شعورك؟!؟

-وماذا في ذلك؟ إن لم أتحدث عن شعوري السخيف مع صديقي المقرب فمع مَنْ

سأستمتع بسخاقتي وتفاهتي؟ ثم أتبع:

- الحياة الرتيبة العاقلة طوال الوقت لا تطاق.

-هل هناك شيء؟

قال "عبدالرحمن" حانقاً:

-لا شيءٍ محدد.

-ألم تستطع أن تصبر كي نتحدث في اللاشيء هذا لاحقاً؟

-اسمعني أرجوك.. سأحكي لك من البداية....

-يتملكني إحساسٌ بأن مصيبة كبرى قد أوشكت على الحدوث فاضطرتُّ لأن

نجلس هذه الجلسة؛ لإخبارك أن هناك كارثة.. ومع ذلك طلبتُ منك الإصغاء إليّ

للتحديثِ عما هو أهم.. تنهد بعمق وأسند ظهره إلى الوراء ثم قال:

-يرإودني كابوسٌ واحدٌ منذ ثلاثة أيام.

وأسندت "جهاد" ذراعها على الطاولة، وتملكها الاهتمام قائلةً:

-كابوسٌ واحد كيف هذا؟!؟

-أقصد أن هناك حلماً واحداً تكرر ثلاث مراتٍ على طوال الثلاث ليالٍ الفاتية.

-ما هو؟

-رأيتُ في منامي أن الضابط الصهيوني الذي حدثتك عنه مسبقاً ذاك الذي زارنا في منزلنا مرتين، وكان السببُ في أن أفعل ما فعلتُ.. رأيتَه وقد أمسك بسكينٍ فغرسه في قلب أمي لكنها أطلقت زغرودة بدلاً من أن تبكي.. فجنّ جنونه، ونزع سكينه من قلب أمي فغرسه في صدر ليلى، لكنها زغردت أيضاً فأخرجه من بين ضلوعها ووضعها في قلب آسيا فبكت!

زوت "جهاد" ما بين حاجبيها، وهتفت:

-مَنْ آسيا؟

-سأحدثك عنها وما طلبتُ الحديث معك إلا من أجلها.. تكرر هذا الحلم ثلاث مرات كما أخبرتك، وفي كل ليلةٍ كنتُ أستيقظ مذعوراً عند صراخ وبكاء آسيا، فشعرتُ أنني مقبلٌ على الموت، وأن الله سيتوب عليّ، ويصطفيني من الشهداء، وستسعد أمي وأختي بذلك لكن آسيا ستشقى به.. آسيا هذه إحدى فتيات الحي، كنتُ أحلمُ دائماً بالزواج منها والاستقرار معها، وإنجاب جيلٍ لا يحمل من بؤسنا وتعاستنا شيئاً.. لكن ظروفنا البائسة، والتي تعلمها حرمتني من نعمة الزواج أو حتى من التفكير به، أو التخطيط له.. وآثرتُ الإحجام عن التفكير بها، أو إدراجها ضمن أحلامي المستحيلة.

وذاذ يومٍ هُدم منزلهم على رأس ساكنيه، ونجت هي من الموت؛ لوجودها خارج المنزل ذاك الوقت، وبعد مواراة جثث أهلها التراب، عادت "آسيا" إلى المنزل، ورغم توشحها بالسواد ودموعها المنهمرة، بدأت في تشييد المنزل بنفسها من جديد،

حجرة حجرة، وأعجب الجميع بها، وبصلابتها غير المعهودة، والتفتت الأنظار إليها وتوقف عن الهجرة الذين هُدمت بيوتهم، وبدأوا في تشييدها من جديد كما فعلت هي.. ولم تفلح إنذارات الإسرائيليين في تهجير أهل الحي بعد ذلك.

وذات يوم طلب أحد شباب الحي خطبتها والزواج منها حتى لا تواجه الحياة وحدها، فما كان منها إلا أن زارت أختي "ليلي" وقالت لها:
-إنها ستنتظرنى ولو طوال العمر.

ووضعتُ بين شقي الرحي ولم أدرِ ماذا أفعل إن وافقتها على قرارها أضعتُ عليها عمرها وشبابها، فأنا لم أنجح في تزويج أختي فكيف سأنجح في الزواج منها.

وبعد طول تفكيرٍ قلتُ للليلي:

-أخبريها أنني لا أفكر بالزواج مطلقاً، وأني سأهبُ حياتي من أجل تحرير الأرض، وأني لم أر زوجاً لها أفضل من هذا الذي تقدم لخطبتها.. وذبحتها بذات الخنجر الذي ذبحتُ نفسي به.

وبعد يومين تفاجأتُ بأنها رفضت الخطبة، وبعد ذلك كنتُ أسمع عن رفضها لكل من طلبها للزواج قائلةً:

-لقد وهبتُ نفسي من أجل تحرير الأرض!

فرك أصابعه، ثم وضع إحدى يديه تحت ذقنه قائلاً بعصبية:

-عدني إن أصابني مكروه أن تذهب لأمي وتواسيها، وأن تخبرها أنني لم أرد من

هذه الدنيا إلا رضاها.....

وطُرق الباب ودخل منه "ياسر" دون أن يتلقى الإذن بالدخول، ونظر
"عبدالرحمن" إلى "جهاد" نظرة شفقة وتساءل:

- هل رحل الصحفيون يا سيدي؟

- لقد ذهبوا إلى جناح الأطباء.. سيقضون اليوم هناك، ويزنلون الليلة عند جناح
الضباط، وسيبدوون في التصوير من الغد.. فقد يستغرق تصويرهم عدة أيام.

ودق قلب "جهاد" في عنفٍ ونظر إليها "عبدالرحمن" كأنه يواسيها، ودون أن
ينطق اتجه ناحية الباب مغادراً، ولم يكذ يغلق الباب وراءه حتى فتحه مرة ثانية، وقال
بانفعال موجهاً الكلام إلى ياسر:

- إن كان هناك مَنْ يستحق التحقيق فأنا أولى به.. أنا الوحيد الخائن هنا.. مهما
فعل جهاد ومهما خالف من أوامر فلن يتخطى جرمه ما ارتكبته أنا، ودون أن يتلقى رداً،
أغلق الباب.

وبعد ثوانٍ دخل أحد ضباط التحقيق، وجلس إلى جانب "ياسر" الذي بدأ
بتجهيز الأوراق التي سيخط عليها كل دفوع جهاد.. وأمسك بالقلم وأعطاه للضابط
الذي يرافقه.

وفجأة ارتفعت أصوات الجنود، وصراخ المرضات، وجاء أحد العساكر يهتفُ
بصوتٍ عالٍ :

- "أدركونا هناك خائنٌ بيننا.. خائنٌ تأويه جدران المعسكر".

ونظر "ياسر" إلى جهاد قائلاً بعصبية:

- اترك أمر التحقيق لوقتٍ آخر.. اتبعني؛ لنرى ماذا هناك؟

تَحَامَلت "جِهَاد" عَلى نَفْسِهَا وَحَاوَلت أَن تَقِفَ لَكِن شَعُورِهَا بِأَن "حَسَام" وَسَلِمَى " قَد اِكْتَشَفَا حَقِيقَتِهَا كَان السَّبَبُ فِى أَن تَخَارَ قَوَاهَا، وَأَن تُخَوِّنَهَا قَدَمَاهَا فَلَم تَسْتَطِعِ الوُقُوفَ.. وَنَظَرَ إِلَيْهَا "يَاسِر" مُتَعَجِباً قَائِلاً فِى صَدْمَةٍ وَذَهُولٍ :

-هل يقصدونك بالخائن!؟

وَفُتِحَ البَابُ، وَانْدَفَعَ مِنْهُ الضَّبَاطُ وَاحِدًا يَلِى الأَخر.. وَنَظَرَت "جِهَاد" فِى وَجُوهِ جَمِيعِ المُتَوَافِدِينَ إِلَى العَرَفَةِ فِى اِنْتِظَارِ دُخُولِ "سَلِمَى وَحَسَام"، لِأَبَدٍ أَن تُحْتَضَنَ "سَلِمَى" وَلِأَبَدٍ أَن تَلْقَى نَظْرَةَ آخِرَةٍ عَلى وَجُوهِهِمُ البَرِئَةِ، حَتَّى وَإِن كَانَا سَبَبًا فِى إِحْلَاقِ العَارِ بِهَا وَتَوَجِيهِ اِتِّهَامٍ بِأَطْلَاقِهَا.